

نقد مفهوم العدالة الاجتماعية

في الرأسمالية

ونقدنا لنظرية (ماكس وبر) لا يمنع من استخدامها لنقد مفهوم العدالة الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي نفسه. فمن خلال دراسة العوامل الثلاثة التي ذكرها (ماكس وبر)، والتي تتحكم في وضع الطبقات الاجتماعية، خصوصاً الطبقة العليا، فاننا نستطيع ان نكون صورة موضوعية عن معنى العدالة الاجتماعية في النظام الرأسمالي. وتلك العوامل هي: العامل الاقتصادي (الثروة)، والعامل السياسي (القوة)، والعامل الاجتماعي (المنزلة الاجتماعية).

1- الثروة: وهي على نوعين، الاول: الارصدة والعقارات ووسائل الانتاج. والثاني: الاجر او الدخل السنوي. فمن الواضح ان جميع المؤشرات تدل على انعدام العدالة الاجتماعية في الانظمة الرأسمالية، وسببها في الاصل التوزيع غير العادل للثروة الاجتماعية بين الافراد. حيث يقع نصف حجم الارصدة والعقارات ووسائل الانتاج في حيازة مجموعة قليلة من الافراد تشكل واحداً بالمائة من نسبة السكان¹. بمعنى ان فرداً واحداً من كل مائة فرد يملك نصف الثروة العينية والنقدية للمجتمع، والباقي وهم تسع وتسعون فرداً يملكون النصف الآخر. وهذا يعكس انعدام العدالة الاجتماعية، لان السيطرة على الثروة الاجتماعية يترجم غالباً الى سيطرة على مقدرات النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للدولة. وهؤلاء الأثرياء يتميزون عن غيرهم من الافراد، لان اموالهم تجاوزت حدود المكافأة الاجتماعية للجهد الانساني في التاريخ. وتراكم المال بهذا الشكل عند بعض الافراد دون غيرهم له آثار سلبية على المجتمع من طرفين:

الطرف الاول: ان هذا التراكم يسبب حرماناً لعدد كبير من الافراد في الاستفادة من تلك الثروة وتوجيهها لمصلحة النظام الاجتماعي بصورة عادلة.

الطرف الثاني: ان الاسراف الذي يرافق تراكم تلك الثروة عند بعض الافراد ضمن طبقة معينة، يؤدي الى اهدار طاقات المجتمع وتبديد موارده الطبيعية التي خلقت في الاساس لاشباع حاجات جميع الناس

¹ مكتب الاحصاء: مالكية الارصدة: 1984م. تقارير الكثافة السكانية، سلسلة ب - 70، رقم 7. مطبعة الحكومة 1984م.

دون استثناء.

اما الأجر أو الدخل فهو مؤشر آخر على انعدام عدالة توزيع الثروة الاجتماعية؛ حيث ان نسبة ضئيلة فقط من الافراد (تقدر واحداً بالمائة) تستلم اجوراً عاليةً تتجاوز الجهد المبذول²، بينما تبقى الاغلبية العظمى من الافراد دون ذلك.

2- مصادر القوة: وتتركز السلطة السياسية بيد القلة بنفس الاسلوب الذي تتراكم به الثروة الاجتماعية؛ بينما يصيب الحرمان نسبة تقدر باكثر من خمس عدد افراد المجتمع³. ومن المؤكد ان معنى الثروة يرادف معنى القوة السياسية؛ لان الثروة المتراكمة بيد القلة لا تخلق محيطاً مناسباً لرخاء العيش فحسب، بل تخلق شهوة جامحة للتحكم والسيطرة السياسية على مقدرات الناس في البلدان الرأسمالية. فثلث اعضاء الكونغرس في الولايات المتحدة في النصف الاخير من القرن العشرين من اصحاب الملايين⁴، بل ان لعائلي روكفلر وكندي المشهورتين بالثراء حصصاً شبه دائمية في النظام السياسي الامريكى، وحقوقاً سياسية متوارثة جيلا عن جيل⁵. وبطبيعة الحال، فان انعدام العدالة في النظام السياسي يستند على عدة عوامل مهمة تشكل اساس ديمومة الطبقة الرأسمالية؛ وتلك العوامل هي:

الاول: وجود مجموعات تمثل مصالح الطبقة الرأسمالية، هدفها التأثير على صياغة القوانين، حتى تضمن مصالح المؤسسات الرأسمالية الكبرى⁶. بينما لا يوجد للطبقة الفقيرة من يمثلها في التشكيل السياسي والتشريعي.

الثاني: ان نظام الضريبة ليس نظاماً تصاعدياً يتناسب طردياً مع كمية الارباح المجناة، بل ان عشرة

² مكتب الاحصاء: ملخص احصائيات الولايات المتحدة 1986م. مطبعة الحكومة 1986م.

³ الطبقة المعدمة - كين اوليتا. ماكرو- هيل 1982م.

⁴ الديمقراطية في الولايات المتحدة - روبرت دال. بوستن: هوتن ميفلين 1981م.

⁵ بحوث حول تركيبة السلطة - جي وليام دوموف. سيك 1980م.

⁶ الدائرة الداخلية: المؤسسات التجارية العملاقة و بروز النشاط السياسي التجاري في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة - ميشيل اوسيم . جامعة اكسفورد 1984م.

بالمائة فقط تفرض على فائض ارباح المؤسسات الرأسمالية العملاقة، والثالث على فائض ارباح الافراد⁷. وهذا يعني ان النظام الضرائبي ليس عادلاً.

الثالث: سوء توزيع الثروة الاجتماعية؛ فتذهب النسبة العظمى من اموال الخزينة الى المؤسسات الرأسمالية الكبرى، كالمؤسسات الصناعية العسكرية، ومؤسسات عملاقة اخرى، ولا يبقى للخدمات الاجتماعية كإعالة الفقراء الا النزر اليسير⁸. وهكذا تدور الثروة الاجتماعية بين المؤسسات الرأسمالية العملاقة، تاركة الطبقة الفقيرة تسبح في بحر من التخلف والحرمان.

3- المنزلة الاجتماعية: ويحتل الاثرياء ومن تجمعت السلطة السياسية في ايديهم مكان الصدارة في المجتمع؛ بينما يحتل المفكرون وعلماء الطبيعة ورجال الدين والاساتذة الطبقة الوسطى. ويحتل الفقراء المنزلة السفلى في السلم الاجتماعي⁹. وتمايز الطبقات في الغرب ليس بحديث عهد، حيث يذكر المؤرخون ان العائلة المالكة في روما مثلاً، كانت لاتسمح لغير افرادها بلبس الملابس الحمراء، وان العائلة المالكة في انكلترا كانت لاتسمح في القرن السادس عشر، لغير نساءها بلبس الملابس المخاطة بالذهب والفضة¹⁰. وتلك الممارسات تؤكد على ان السلطة احياناً تُكره الناس على حرمة التفكير بالصعود الى منزلتها الاجتماعية، وما على الافراد الا الطاعة والتسليم¹¹.

وفي ضوء ذلك التمايز تُسيّر دفة النظام الرأسمالي. حيث يعكس تصميم تلك الانظمة القائمة على فكرة تمايز الطبقات، التوزيع غير العادل للثروة. ففرقة المنزلة الاجتماعية التي يتمتع بها الفرد تعكس تراكمًا لمواد عينية ونقدية تصبح - لاحقاً - السبب في البذخ وتجاوز حدود سد الحاجة الطبيعية للانسان. والمقياس، ان الوجاهة الاجتماعية تُحدد بموجب الدخل الذي يرده، لا بمقتضى

⁷ محاربة الفقر: ما الذي ينفع وما الذي لا ينفع؟ - مصدر سابق.

⁸ الطبقة الاجتماعية، الرموز، والسيطرة - باسيل بيرنستاين. لندن: روتليج وكيمان بول 1971م.

⁹ الوظائف الرفيعة في دراسة مقارنة - دونالد ترامان. المطبعة الاكاديمية 1977م.

¹⁰ الظلم الاجتماعي: القواعد الاساسية للطاعة والعصيان - بارنينكن مور. بانثيون 1979م.

¹¹ تركيبة الظلم الاجتماعي - بيث فانفوسين. بوستن: ليتل براون 1979م.

نوعية العمل الذي يقدمه للنظام الاجتماعي¹².

وبالاجمال، فقد صُمم النظام الاقتصادي على اساس ان الفرد حر في استخدام وسائل الانتاج لاستدراار اقصى ما يمكن استدرااره من الخيرات، فاذا تراكمت الثروة لديه ارتقى الى مستوى اعلى في السلم الاجتماعي، وعندها يمسك بزمام القوة السياسية ويحتل الصدارة الاجتماعية. ولم تتوقف الفكرة الرأسمالية عند هذا الحد، بل اعتبرت تلازم المنزلة الاجتماعية بنظام الطبقات ونظام العمل امراً طبيعياً. فطبقة الاستثمار ينبغي ان تتميز عن طبقة العمل في الحقوق والمصانع، والطبقة الارستقراطية ينبغي ان تتميز عن الطبقة الوسطى، والطبقة الغنية ينبغي ان تترفع عن الطبقة الفقيرة¹³؛ وهو تأكيد واضح على قياس تفاضل الافراد على اساس نسبة رأس المال المملوك، وليس على اساس نفع العمل وقيمه الاخلاقية للنظام الاجتماعي. وهذا المقياس غير العادل ربما يؤدي في النهاية الى تفضيل الظالم على المظلوم، والسارق على المسروق، والباغي على المبغي عليه، خصوصاً اذا كان الظالم والسارق والباغي اكثر ثروة من المظلوم والمسروق والمبغي عليه؛ وهو شرخ اخلاقي خطير في النظام الاجتماعي.

وحتى نستقرئ حجم انعدام العدالة الاجتماعية وأبعادها في النظام الرأسمالي، لابد لنا من ملاحظة الارقام التالية: ففي الربع الاخير من القرن العشرين يبلغ عدد نفوس الولايات المتحدة، حوالي مائتين وخمسين مليون نسمة تقريباً، منهم ستمائة الف مليونير بضمنهم ستة وعشرون بليونير، وخمسة وثلاثون مليون شخص ما بين جائع او معدم او مشرد او فقير لا يملك قوت سنته؛ ومن بين هؤلاء تسعون عائلة امريكية غنية تسيطر على نصف ممتلكات الولايات المتحدة من العقارات والارصدة ووسائل الانتاج، حيث تراث تلك العوائل هذه الثروة العظيمة جيلاً بعد جيل، منذ مائتي عام ولحد اليوم¹⁴. ومن استقراء هذه الحقائق نتساءل: اين - اذن - العدالة في توزيع الثروات بين افراد المجتمع في نظام يعتبر نفسه قمة التطور الرأسمالي في العالم؟

¹² الدائرة المغلقة - مصدر سابق.

¹³ التركيب الطبقي وتعيين الدخل - اريك اولين رايت. المطبعة الاكاديمية 1979م.

¹⁴ من الذي يحكم الولايات المتحدة اليوم؟ مصدر سابق. وايضاً: الدوائر العليا - جي وليام دوموف. راندوم هاوس 1970م.

نقد النظام الطبقي

وبالرغم من ان المفكرين الذين كتبوا الدستور كانت لهم وجهة نظر معينة تجاه العدالة الاجتماعية¹⁵، الا ان رؤية ثاقبة للنظريات الاجتماعية التي طرحت لتفسير الدستور تبين ان النظام الاجتماعي في الولايات المتحدة بُني على اساس رأس المال، بما فيه من ربح وخسارة وتراكم للثروات دون وضع مفهوم واضح للعدالة الاجتماعية بعين الاعتبار¹⁶. وفي ضوء ذلك، فان بروز الطبقات في نظام اجتماعي كهذا، وانفراج الشقة الكبيرة بين الفقراء والاعنياء لا بد وان يكون امراً طبيعياً. واذا كان حلم (بنجامين فرانكلين) و(توماس جفرسن) و(جيمس ماديسون) باقامة مجتمع الثروة والغنى لكل الافراد لم يتحقق، فان النظام الاجتماعي المعاصر قد حقق تقدماً كبيراً في انشاء الطبقات الاجتماعية المتفاوتة الثراء، حيث يبتنى النظام اليوم على خمس طبقات متصارعة هي: الطبقة الرأسمالية، والطبقة الوسطى العليا، والطبقة الوسطى السفلى، والطبقة العاملة، والطبقة الفقيرة المعدمة¹⁷.

فتعتبر الطبقة الرأسمالية الثرية، الصغيرة الحجم والمحدودة العدد، من أقوى الطبقات وأمضاها في المجتمع؛ حيث تتشكل تركيبها الاجتماعية من بقايا النظام الارستقراطي الاوروي القديم الذي هاجر الى العالم الجديد؛ والذي كان ولا يزال قائماً على الاساس العائلي¹⁸، كالعوائل العريقة مثل: عوائل روكفلر، وروزفلت، وكندي، وفاندربلت، ودي بوند، واستر، وغيرها، التي دخلت العالم الجديد باموالها ومنزلتها الاجتماعية في اوروبا وهي ترى ان من حقها ان تتعامل مع المجتمع الجديد في السيطرة والاستعباد، كتعاملها مع المجتمع الاوروي القديم¹⁹. بمعنى انما ترى ان من حقها التعامل مع بقية الافراد تعامل السيد مع العبد، والحاكم مع المحكوم، والمالك مع المملوك. وقد بقيت تلك الطبقة القوية محافظة على وضعها الاجتماعي والاقتصادي المتميز عن طريق

15 الفيدرالية الامريكية والسياسة العامة - توماس انتون. جامعة تمبل 1989م.

16 المساواة - وليام ريان. فينتاج 1982م.

17 النظام الطبقي الامريكي - دانيال روسيدس. بوستن: هوتن ميغلين 1976م.

18 بنية النظام الطبقي الامريكي: تركيب جديد - دنيس كليرت وجوزيف كال. دورسي 1982م.

19 انعدام العدالة الاجتماعية: صراع الطبقات في الولايات المتحدة - هارولد كيربو. ماكرو- هيل 1983م.

انشاء مؤسسات اجتماعية خاصة بها. فوسائل التعليم والخدمات الاجتماعية الخاصة بتلك الطبقة، تقدم خدماتها حصيصاً لهؤلاء الافراد فقط، ولا تسمح لبقية افراد الطبقات الاخرى التمتع بها. وطريقتها في ذلك، رفع أحوال التعليم- مثلاً - للمدارس والجامعات الخاصة، أو أحوال عضوية المعاهد والنوادي الخاصة بالطبقة، الى نسب خيالية، مما يحرم الطبقات الاخرى من الانضمام اليها، والتمتع بخدماتها الراقية²⁰. ونتيجة لذلك، فقد ابتعدت الطبقة الفقيرة عن الاختلاط بتلك الطبقات رويداً رويداً، حتى انقطعت كل الصلات الاجتماعية بينهما.

وبطبيعة الحال، فان الطبقة الثرية تحافظ على نقاوتها وحيويتها جيلاً بعد جيل، عن طريق التزاوج فيما بين افرادها. فالتزاوج بين ابناء الرؤوس الكبيرة يُبقي تراكم الثروة ضمن حدود الطبقة الغنية وجدرانها دائماً²¹. ولا بد من سائل يسأل: هل يسمح لفرد تراكم الثروة في حوزته عن طريق القمار مثلاً من الانضمام لتلك الطبقة؟ والجواب ان القادم الجديد لا يسمح له الانضمام الى تلك الطبقة حتى وان تجاوزت امواله اموال بعض افرادها؛ لانه لا يملك النسب العائلي الذي يسمح له الدخول الى دائرة تلك الحلقة الاجتماعية الخاصة²².

ولاشك ان التأثير السياسي لتلك العوائل يتجاوز الحدود الجغرافية للولايات المتحدة ليشمل العالم الواسع من خلال التجارة والتسلح والتأثير السياسي والاقتصادي والثقافي. ولا ريب ان الظلم الذي لحق الناس نتيجة سيطرة تلك الطبقة لم يشمل الافراد الذين يعيشون في بقعة جغرافية محددة او اولئك الذين يسكنون في دولة معينة، بل قد شمل الانسانية المعاصرة كلها على وجه الارض²³؛ خصوصاً اذا ما علمنا ان الطبقة الرأسمالية في الولايات المتحدة لها ارتباطات وثيقة بالطبقات المالكة في اوروبا وكبريطانيا وهولندا والسويد.

والطبقة الوسطى العليا، وهي الطبقة التي تضم اعضاء يتجاوز دخلهم الحدود الطبيعية لنظام

²⁰ السيطرة التجارية والسلطة التجارية - ادوارد هيرمان. جامعة كامبردج 1981م.

²¹ الطبقة الحاكمة - رايت ميلر. جامعة اكسفورد 1956م.

²² علم الاجتماع السياسي: دراسة في السلوك النفسي والسياسي - هربرت هيمان. المطبعة الحرة 1969م.

²³ اقتصاد العالم الرأسمالي - عمانوئيل لورستانين. مطبعة جامعة كامبردج 1979م.

الاجر العادل، وينضوي تحت لوائها رجال اعمال لهم منزلتهم الاجتماعية، ولكنهم لايعتبرون من الطبقة الثرية المالكه؛ وبذلك فهم لايدبرون دفة الامور السياسية بل ان اغلب تطلعاتهم مالية واقتصادية²⁴.

والطبقة الوسطى السفلى، وهي الطبقة التي تضم تحت رايتها افراداً من ذوي دخل محدود يتناسب تناسباً معقولاً مع الجهد المبذول؛ ويدخل فيها التجار الصغار واصحاب المهن الحرة الذين يجهدون في العمل للحفاظ على وضعهم الاقتصادي والاجتماعي²⁵.

والطبقة العاملة، وهي التي تضم بين دفتيها جميع الافراد الذين يعملون بأجر محدود في الحقول والمصانع والخدمات العامة، وتتميز عن غيرها بان عمل افرادها عمل يدوي شاق غالباً. ومع ان الأجر والمكافأة المالية لهذه الطبقة جيد الا ان افرادها لا يتمتعون بالمنزلة الاجتماعية اللائقة التي يتمتع بها نظائرهم من الطبقات العليا²⁶.

والطبقة الاخيرة هي طبقة الفقراء، حيث يعتبرهم النظام الاجتماعي من اوطأ الطبقات درجةً واهميةً في السلم الاجتماعي²⁷ لسببين:

الاول: ان اغلب اعضاء هذه الطبقة عاطلون عن العمل.

الثاني: ان هؤلاء الافراد ليست لديهم المهارة او الكفاءة في انجاز العمل الموكل لهم انجازه. ولما كان هؤلاء الافراد لايمثلون قيمة حقيقية في سوق العمل فانهم لا يمثلون قيمة حقيقية في القوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للنظام الاجتماعي؛ بمعنى ان الفرد الفقير الذي لا يستطيع ان يقدم انتاجاً مريحاً للعجلة الرأسمالية ليست له قيمة حقيقية في الحياة الانسانية²⁸.

ومن الطبيعي، فان محافظة النظام الطبقي على وجوده مدة قرنين من الزمان، نابع من إحكام

²⁴ هيكلية النظام الطبقي الامريكي: تركيب جديد- دينس كيلبرت وجوزيف كول. النوي: دورسي 1982م.

²⁵ الطبقة الاجتماعية والتجانس - ميلفين كوهين. النوي: دورسي 1977م.

²⁶ بين العمل ورأس المال - بات ولكر. بوستن: ساوث اند 1979م.

²⁷ الثروة والفقير - جورج كيلدر. الكتب الاساسية 1981م.

²⁸ الفقر الامريكي الجديد - ميشيل هارينكن. هولت، راينهارت وونستن 1984م.

قبضته الحديدية على النظام السياسي الذي تحركه الثروة والقوة والمنزلة الاجتماعية²⁹. فالطفل الذي يولد في دائرة الطبقة الثرية للمجتمع الرأسمالي يكتسب المهارة والقيم والثقافة المسيطرة على تلك الطبقة، وينشأ ويتطور وجوده الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ضمن اجواء تلك الطبقة الحاكمة. والطفل الذي يولد في طبقة فقيرة، يعيش مع اقرانه من المحرومين، في الطبقة المحكومة، فلا يرى امامه فرصة تؤهله للوصول الى الطبقة الثرية او حتى الحلم بالاجار الى شواطئ الرخاء والرفاهية، فيصبح معاقاً من قبل النظام الاجتماعي وهو بعد لم يكتشف قدراته الابداعية.

الآثار المترتبة على تطبيق الرأسمالية

ولاشك ان رسوخ فكرة تمايز الطبقات الاجتماعية في النظرية الرأسمالية لها آثار سلبية على روح العلاقات الانسانية في المجتمع، فالرأسماليون يتمتعون بمختلف الامتيازات الممنوحة لهم على حساب الطبقات الاخرى، بينما يقبع المحرومون في زوايا الظلم الاجتماعي حيث لا قدرة لهم على تغيير اسلوب حياتهم ولا قوة لهم على استثمار فرص لا تتوفر لنوابغهم.

فعلى الصعيد السياسي، تنشط الطبقة الرأسمالية في حركة التصويت والانتخاب للمرشحين السياسيين، لان الانتخاب يعزز دعواها بسلامة النظام الديمقراطي، ويثبت في نفس الوقت المراكز السياسية التي صممت اصلاً لخدمة تلك الطبقة؛ بينما تُظهر الطبقة الفقيرة تجاهلاً عملياً تجاه عملية التصويت لانها تعلم ان التصويت لا يغير الواقع السياسي والاجتماعي³⁰.

ولابد هنا من ملاحظة قضية مهمة وهي ان غالبية المرشحين السياسيين ينحدرون من الطبقة الرأسمالية. وبسبب ذلك التفاضل السياسي بين الافراد على الاساس الطبقي، اصبح التمييز السياسي بين الطبقات الاجتماعية أمراً حتمياً، خصوصاً على مستوى الاحزاب السياسية، حيث يمثل الحزب

²⁹ تركيبة الشبكة القومية للطبقة الحاكمة - كوين مور. مقالة علمية في (الجملة الامريكية النقدية لعلم الاجتماع)، عدد 44، 1979م. ص 673-692.

³⁰ من الذي يصوت؟ - ريموند ولفنكر وستيفن روزنستون. جامعة ييل 1980م. وايضاً: الرجل السياسي - سيمور مارتن لبت. دبل دي 1959م.

الجمهوري الطبقة الرأسمالية الغنية، بينما يمثل الحزب الديمقراطي الطبقة العاملة والاقليات العرقية³¹. وعلى المستوى الاجتماعي يمثل الجمهوريون الحركة المحافظة وروادها من دعاة البقاء على القيم الاخلاقية التي اقرتها النصرانية كحرمة الطلاق وحرمة الاجهاض، واهمية دور المرأة في العائلة، وضرورة المحافظة على القيم الدينية؛ بينما يمثل الديمقراطيون الحركة التحررية التي تدعو الى التحرر من القيم الاجتماعية بالدرجة التي لاتعارض مع المفهوم السياسي للديمقراطية، كتحرر المرأة من الروابط الاجتماعية، وضرورة اقحامها في النظام السياسي والقضائي والتشريعي، والدعوة الى التحرر من القضايا التقليدية الاجتماعية³².

وعلى الصعيد الديني، فان الطبقة الرأسمالية في الولايات المتحدة تنتمي الى المذهب البروتستانتي، فالبروتستانت يتحكمون بالقوة المالية والسياسية للنظام الاجتماعي دون غيرهم³³. ولكن التمييز الطبقي لا يترك فرداً ولا مذهباً ولا كنيسة دون ان يلعب دوره المخرب فيها. فحتى الكنائس البروتستانتية مقسمة على اساس النظام الطبقي والدخل السنوي للافراد. فالافراد من ذوي الدخل المرتفع يتعبدون في كنائس تختلف فيها الخدمة الدينية عن تلك التي تؤمها الطبقة الاضعف مالياً من نفس المذهب. حيث تقوم كنائس الطبقة الرأسمالية بخدمة المتعبدين الاثرياء خدمة رقيقة، مباشرة اياهم بالجنان التي صنعها الخالق عز وجل لهم في الحياة الآخرة؛ بينما تقوم كنائس الطبقة الاضعف مالياً بدعوة الناس الى قبول النظام الاجتماعي والسياسي القائم باعتباره نظاماً مباركاً من قبل الله عز وجل، مذكرة اياهم بان رفضه يمثل رفضاً للدين والحياة الروحية. وما شعار (بارك الرب في الولايات المتحدة) الذي تستخدمه الرأسمالية، الا شعار ديني ينبع من اصل الفكرة البروتستانتية الداعية الى اطاعة النظام الاجتماعي القائم على اساس الرأسمالية³⁴.

وعلى الصعيد العائلي، فان الطبقة الرأسمالية لا تعاني من مشاكل الطلاق وما يترتب عليها

³¹ السياسة الجديدة لعدم المساواة - توماس ايدسال. نورتن 1984م.

³² السياسة، الاحزاب، والانتخابات في امريكا - جون بيبى. نيويورك: نيلسون- هول 1987م.

³³ الاصول الاجتماعية للدكتاتورية والديمقراطية - بارنينكتن مور. بوستن: بيكون، 1966م.

³⁴ الاخلاقية البروتستانتية والروحية الرأسمالية - ماكس وير. نيويورك: سكرابنرز 1958م.

من ازمات نفسية واقتصادية، كما هو الحال في الطبقة الفقيرة؛ بل ان اهمال حاجات الطبقة الفقيرة، سبب زيادة نسب حالات الطلاق في تلك الطبقة الى درجة ان تلك المشكلة اصبحت تهدد اصل وجود الفقراء³⁵. ولاشك ان اول نتيجة مدمرة للطلاق هو تشريد الاطفال، وجعلهم عرضة للانحراف الاجتماعي. وطالما كانت تلك المشكلة الاجتماعية مطوقة ضمن حدود الطبقة الفقيرة، فان الرأسمالية لا تعتبرها مشكلة خطيرة؛ بل تعتبرها - في واقع الامر - قضية صحية على الصعيد السياسي لانها تبعد الفقراء عن السلطة السياسية. اما الطبقة المتوسطة فان الطلاق منتشر فيها ايضاً. ولكن الطبقة الوحيدة التي لا يمسه شروره - الا استثناءً - هي الطبقة الرأسمالية بسبب قوتها الاقتصادية اولاً، وقدرة افرادها على اختيار الشريك المناسب دون عراقيل اجتماعية او مالية ثانياً³⁶. ولاشك ان العوامل التي تؤدي الى الطلاق تختلف من طبقة الى اخرى، ولكن اهم عوامل الطلاق في الطبقتين الفقيرة والمتوسطة هي:

أولاً: العامل الاقتصادي، حيث يساهم الفقر في تمزيق العلاقة الزوجية، بسبب عدم قدرة الزوج على سد حاجات افراد عائلته.

ثانياً: الرادع الديني، حيث لم يعد الدين رادعاً لفكرة الطلاق بسبب ايمان الرأسمالية بفكرة (المذهب الفردي) وما يترتب عليه من حرية وانعتاق من قيود الدين³⁷.

ثالثاً: ان الخدمات الاجتماعية لا تشجع العوائل الفقيرة المؤلفة من آباء وامهات واطفال على التماسك الاسري، وانما تساعد العوائل المنكسرة التي يعيلها معيل واحد، اباً كان او امّاً³⁸. وهذا لا يساعد على حل مشكلة الطلاق. والواقع ان نصف العلاقات الزوجية في المجتمع تنتهي في فترة من

³⁵ الزواج، الطلاق، ثم الزواج مرة اخرى - اندريو جيرلن. جامعة هارفارد 1981م.

³⁶ الجنس في المجتمع: ابعاد حول انعدام العدالة الاجتماعية - جويس ماكارل نيلسون. وادسورث 1978م.

³⁷ فكرة الافراط في اجتماعية الانسان في علم الاجتماع الحديث - دنيس رونك. (المجلة النقدية لعلم الاجتماع) عدد 26،

1961م. ص 183-193.

³⁸ اذلال الفقراء: المساعدة الحكومية والعقيدة الامريكية - جو فياجن. برنتس - هول 1975م.

الفترات الى الانفصال ثم الطلاق³⁹.

وعلى الصعيد التعليمي، تتمتع الطبقة الرأسمالية بمستوى ثقافي وتعليمي اعلى من مستوى الطبقة الفقيرة. فاطفال الاغنياء هم المتفوقون علمياً في مدارسهم على اقرانهم، ولذلك فان الجامعات ومعاهد العلم تغص بذرية اصحاب المال مما يهيئ لها فرصاً أكبر لاحتلال الادوار الاجتماعية المهمة التي يحتاجها المجتمع لاحقاً⁴⁰.

وعلى صعيد القيم فان الرأسمالية تؤمن بان قوة الانسان السياسية والاجتماعية تابعة من قوته الاقتصادية وقدرته على تحصيل المال، فهي ترى ان للنقد صوتاً مسموعاً، وللمسكوك رنيناً جذاباً. بمعنى ان على الفرد الاجتهاد بشئ الوسائل لكسب المال وتجميع الثروة، لانها الاصل في تحصيل القوة الاجتماعية والسياسية⁴¹؛ على عكس الطبقة الفقيرة التي تتمسك بعقيدتها بدور الحظ والتوفيق في الحياة الاجتماعية، وبان التوفيق يصيب قوماً ويحيد عن آخرين على القاعدة العربية القائلة (ما كلُّ رامي عرض يُصِيبُ)، وعلى هذا الاساس يبني افرادها مستقبل حياتهم الاجتماعية فيتركون التخطيط لمستقبل الحياة، ويصبون جلَّ اهتمامهم لمعاشهم اليومي وهمومهم الآنية.

وعلى الصعيد الصحي، فان الطبقة الرأسمالية تتمتع اجمالاً بافضل الخدمات الصحية، ويعيش افرادها عمراً مديداً يتجاوز اعمار افراد الطبقات الاخرى⁴². بل ان اغلب الامراض العقلية في النظام الاجتماعي تنتشر بين الفقراء. ويعزى قلة انتشار الامراض بين افراد الطبقة الرأسمالية الى عاملين:
الاول: حسن التغذية.

الثاني: توفر اسباب الامان الذهني والاطمئنان للمستقبل.

والجهاز الصحي قائم على مبدأ الربح والخسارة؛ فالخدمات الشفائية تقدم على اساس المنفعة التجارية البحتة، وتقدم للغني أفضل الخدمات العلاجية لانه يدفع أجراً أعلى، ويحكم على الفقير

³⁹ الانفصال الزوجي - روبرت وايس. نيويورك: الكتب الاساسية 1979م.

⁴⁰ انعدام العدالة: اعادة تقييم لتأثير العائلة والمدرسة في امريكا - كريستوفر جينكز وآخرون. الكتب الاساسية 1972م.

⁴¹ الديناميكية الاجتماعية والثقافية - بيتر سوروكين. الكتب الاساسية 1937

⁴² المرض الثاني: تناقضات المرض الصحي الرأسمالي - هاورد ويتكن. جامعة شيكاغو 1986م.

بالمريض لانه لا يستطيع ان يدفع أجراً يطرد به الامراض والنوازل التي تنزل به وبافراد اسرته⁴³. فالاغنياء يشرون حياتهم وصحتهم وحياء اسرهم بثروتهم، بينما يجود الفقراء بارواحهم، لا لانهم عاجزون عن درء الاذى عن اجسادهم بل لفساد الفكرة التي آمنت بمعيار المنفعة التجارية في علاج الناس.

وعلى صعيد تربية القاصرين، فان التربية تتلون بلون الطبقة الاجتماعية التي يعيش فيها الطفل. فالطفل الذي يرتع في محيط الطبقة الرأسمالية غالباً ما تشعره الطبقة بشخصيته المستقلة وكيانه المتطور، فيتعرع ضمن الجو الاقتصادي وفكرة الاعتماد على النفس؛ على عكس الطفل الذي ينشأ في طبقة فقيرة حيث ينشأ على تعلم اطاعة الاوامر، والابتعاد عن مواطن الصراع السياسي⁴⁴. وعلى صعيد الانحراف الاجتماعي، يمارس الافراد في الطبقات الاجتماعية انحرافاً من نوع ما كجرائم القتل، والسرقه، والاعتداء، وغير ذلك من الجرائم الاجتماعية والخلقية. الا ان افراد الطبقة الفقيرة معرضون الى الاعتقال والمحكمة والسجن اكثر من نظائرهم في الطبقة العليا، لنفس الجرائم المرتكبة⁴⁵. بل ان بعض الجنايات التي يرتكبها افراد الطبقة العليا أعظم وأخطر من جنايات الفقراء الا ان الثروة ووسائلها تستطيع ان تلوي عنق القانون لصالح الظالم ضد المظلوم⁴⁶.

«الحلم بالاثراء» وارتباطه بتغيير الادوار الاجتماعية

ويتمحور مفهوم السعادة في النظام الرأسمالي في الولايات المتحدة حول كلمتين لهما نغم خاص ورنين يداعب مشاعر معتنقي النظرية الرأسمالية، وهما: (الحلم بالاثراء) أو (الحلم الامريكي). حيث يدّعي منظّرو الفكرة الرأسمالية ان مفهوم «الحلم بالاثراء» دليل قاطع على نجاح الرأسمالية،

⁴³ من الذي يسبق؟ ومن الذي يبقى في المؤخرة؟ - كريك دنكان. مقالة علمية في المجلة (الاحصائية السكانية الامريكية)، عدد 4، 1982م. ص 38 - 41.

⁴⁴ الخلفية الاقتصادية - الاجتماعية والمكتسبات - اوتيس ديديل دنكان. المطبعة الاكاديمية 1972م.

⁴⁵ انحرافات الطبقة العليا - ديفيد سامون وستانلي ايتزن. بوستن: الين وبيكون 1986م.

⁴⁶ علم اجتماع السلوك المنحرف - مارشال كلينراد وروبرت ماير. هولت، راينهارت، وونستن 1985م.

كنظام اقتصادي عادل يفسح المجال لكل المتشوقين للصعود الى قمة السلم الاجتماعي، للسيطرة على منابع القوة والثروة والمنزلة الاجتماعية⁴⁷. ف (ابراهيم لنكولن) بدأ حياته الاجتماعية نزيل كوخ هرم في منطقة فقيرة، ولكن «الحلم بالاثراء» أوصله الى القمة فاصبح رئيساً للدولة، ولولا العدالة الرأسمالية لما تحقق ذلك. وهناك اسماء اخرى من الفقراء وصلت الى قمة الطبقة الثرية امثال (اندريو كارنيكي)، و(جي بي موركن) وغيرهم حيث انتشلهم جهدهم وكدهم من مستنقع الفقر والجوع الى جنة المتعة والمال⁴⁸. ففكرة «الحلم بالاثراء» تصرّ على ان بإمكان اي فرد من افراد المجتمع الرأسمالي الوصول الى قمة الصدارة الاجتماعية والثروة والقوة، بغض النظر عن خلفية ذلك الفرد الاقتصادية والاجتماعية. فيبشر رواد تلك الفكرة ومعتنقها اذن، بالجنة والنعيم لكل العمال والمنتجين الذين يجدون ويكدحون تحت راية الرأسمالية للوصول الى منبع الثروات في النظام الاجتماعي⁴⁹.

والبصير يرى ان الاحلام غير الحقائق والوقائع غير الاوهام، ولو كان «الحلم بالاثراء» حقيقة لما سمي حلماً. فما بال تلك الملايين التي تستنزف طاقتها الجسدية والفكرية للابحار الى مستوى كريم للعيش، لا تصل الى شاطئ الامان الرأسمالي؟ فاين «الحلم بالاثراء» من هؤلاء الفقراء؟ واين «الحلم بالاثراء» من الذين يولدون في الطبقة الفقيرة من المجتمع فلا يجدون من يأخذ بأيديهم الى سبيل العلم والمعرفة ثم الى السعادة والعيش الكريم؟ واين «الحلم بالاثراء» من هؤلاء الذين ينقصهم التوفيق في تحصيل ارزاقهم، وهم شعلة من نار في الجد والعمل؟ ومع ان القائلين بحتمية «الحلم بالاثراء» لا يعتقدون اصلاً بنظام «الطفرة الطبقيّة» وهو الاثراء السريع خلال فترة قصيرة من العمل الجاد، الا ان المبدأ - الحلم غير واقعي لانه يشجع الافراد على التسابق لتجميع الثروة وتراكمها ضمن مجموعة محددة من الافراد.

⁴⁷ من الذي يسبق على الصعيد الاقتصادي؟ - كريستوفر حنكزر. الكتب الاساسية 1979م.

⁴⁸ الفرص والتغيير - ديفيد فيثمان وروبرت هاوسر. المطبعة الاكاديمية 1978. وايضاً: التحرك الاجتماعي والفرص المتكافئة - سيمور مارتن لبست. بحث في نشرية (المصالح العامة)، عدد 29، خريف 1979م. ص 90-108.

⁴⁹ تشخيص الطبقة الاجتماعية - روبرت هودج ودونالد ترايمان. بحث علمي في (المجلة الامريكية لعلم الاجتماع)، عدد 73، 1968م. ص 535 - 547.

ما بين الجهد والمال:

وبذلك فان كل درهم يضاف الى اموال الطبقة الرأسمالية الثرية يؤخذ في الواقع من اموال الآخرين، لان الاموال محدودة بحدود الاستثمار والتعامل في النظام الاجتماعي. فأية زيادة مالية في طبقة تؤدي الى اختلال اقتصادي واجتماعي في الطبقة الاخرى. وفي ضوء ذلك، ولما كانت الثروة العينية الموجودة في المجتمع ثروة محدودة بحدود توفر النقد، اصبح واضحاً ان تحقيق «الحلم بالاثراء» وتراكم الثروة لدى مجموعة قليلة من الافراد، يسبب في الوقت نفسه حرماناً لافراد آخرين يعيشون في نفس المجتمع. فكيف يحقق «الحلم بالاثراء» العدالة الاجتماعية لجميع افراد النظام الاجتماعي؟

والجهد، الذي تزعم الفكرة الرأسمالية كونه العامل الوحيد في تراكم الثروة، لا يعتبر عاملاً حاسماً في تحقيق ذلك الحلم. نعم انّ الجهد عامل مهم في تحقيق الاسبقية في جني الثروة. الا ان العوامل الاجتماعية والتأثيرات السياسية والاقتصادية الاخرى ترفع افراداً من طبقة دنيا الى طبقة عليا دون بذل جهد معتبر. فابناء الطبقات المختلفة في المجتمع الحديث مثلاً، يوفقون اجتماعياً اكثر من آباءهم في تحصيل الثروة والقوة السياسية، بسبب تطوّر الحياة الانسانية السريع وتغيرها في فنون الصناعة والزراعة والخدمات، فيتميّز الجيل الجديد عن سابقه بتحصيل اسباب الفنون الحديثة. ويتسلسل الابناء درجات معدودة في السلم الاجتماعي باتجاه الطبقة الثرية. فلماذا اختلفت اذن المكافآت الاجتماعية بين الابناء والآباء، مع ان الآباء بذلوا جهداً مضمناً في تحصيل العيش، ولكنهم لم يوفقوا في تجميع الثروة كما وفق ابنائهم لاحقاً؟

فالنتيجة اذن، ان الجهد في المجتمع الرأسمالي، بالاصل، لا يضمن للانسان تراكماً غير محدود للمال. واذا لم يكن الجهد عاملاً حاسماً في تراكم الثروة، فلماذا يشكل تغير الادوار الاجتماعية تحدياً صارخاً لصميم نظرية العدالة الاجتماعية الرأسمالية؟ وامام هذا السؤال الكبير تعترف الرأسمالية بفشلها في تحقيق العدالة الاجتماعية لجميع افراد المجتمع باعتبار ان المشكلة التي يواجهها النظام الاجتماعي تكمن في ان اعداداً كبيرة من الافراد تبحث عن عدد محدود من المراكز الاجتماعية العليا المؤثرة في

المال والمركز الاجتماعي:

فلو اخذنا عضو البرلمان كمثال لفرد يحتل موقعا متميزا في الطبقة الرأسمالية وطبقنا فكرة «الحلم بالاثراء» التي تقول بان كل فرد من افراد المجتمع له حق متساو في الوصول الى اعلى منصب في النظام السياسي، فان مائتين وخمسين مليون فرد سيتنافسون - نظريا - على مائة منصب؛ وهو عدد اعضاء البرلمان مثلاً. فاين موقع «الحلم بالاثراء» من الذين يفشلون في الوصول الى ذلك المركز الاجتماعي المتميز، حتى لو بذلوا جهداً استثنائياً للوصول الى ذلك المركز الذي يحقق كل طموحاتهم الاجتماعية؟

ولو افترضنا ان هناك الف مؤسسة مالية كبرى تدير النظام الاقتصادي والمالي في المجتمع الرأسمالي، وتُشغّل الف مدير يتمتعون بمراكز رفيعة في الطبقة الاجتماعية العليا، فاين «الحلم بالاثراء» من ملايين الافراد الذين لا يستطيعون الوصول الى تلك المراكز لسبب من الاسباب؟ فكيف يزعم رواد المدرسة الرأسمالية اذن بتوفر الفرص لكل افراد المجتمع للوصول الى اعلى المراكز الاجتماعية، وتجاوز الرحلة الشاقة الطويلة من الفقر والعدم الى الغنى والثروة؟

وكيف تفسر تلك النظرية مبدأ المساواة في الحقوق اذا كانت اغلب المراكز العليا في النظام الاجتماعي محجوزة لابناء الطبقة الثرية؟ اذن فان «الحلم بالاثراء» لا يعدو اكثر من شعار مزيف وجرعة مخدرة تداعب احلام الفقراء في الانتقال من مستنقع البؤس والظلم والحرمان الى عالم مليء بالملاهي والآمال الخادعة. ولا بد، حتى يكون الفرد مؤهلاً - حسب الفكرة الرأسمالية - للانضمام الى الطبقة العليا المسيطرة على شؤون النظام الاجتماعي ان تتوفر فيه صفتان اساسيتان، هما: النسب والعلم⁵¹.

⁵⁰ الطبقة في العالم الحديث - جيرالد بيرمان. التعليم العام، 1973م.

⁵¹ تركيبة النظام الطبقي الامريكى - اريك اولين رايت وآخرون. مقالة علمية في (المجلة النقدية الامريكى لعلم الاجتماع)، عدد 47، 1982م. ص 709 - 726.

والمقصود بالنسب هو المنزلة الاجتماعية للابوين. فاذا كان الابوان من المنتسبين للطبقة العليا المسيطرة على مقدرات النظام الاجتماعي، فان احتمال احتلال المناصب السياسية او الاقتصادية او الاجتماعية للفرد يغدو امراً حتمياً.

والمقصود بالعلم هنا هو تحصيل علمي معرفي من جامعة خاصة بالطبقة العليا امثال جامعات هارفرد وييل وبرنستون واكسفورد وكامبرج ونحوها. حيث ان تلك الشهادة الجامعية هي في الواقع دليل آخر على انتماء الفرد الى الطبقة العليا؛ على عكس الطلبة من الطبقة الدنيا، الذين لا يؤهلهم وضعهم الاجتماعي للتحصيل الجامعي لاسباب منها: عدم تكافؤ فرص الالتحاق بمؤسسات التعليم العالي، ومنها: ان سوء التغذية تؤثر لاحقاً على اسلوب تفكيرهم وسلوكهم الاجتماعي ونظرتهم للحياة الاجتماعية، ومنها: ان نسبة الطلاق العالية بينهم تؤثر سلبياً على طموحاتهم سياسياً وتجعلهم اسرى وضعهم الاجتماعي البائس. ولذلك، فانه نادراً ما يصلون الى شغل المناصب العليا في النظام الاجتماعي⁵².

الخلاصة:

ومجمل القول ان النظام الطبقي الرأسمالي من اكثر الانظمة معاداة للعدالة الاجتماعية واشدها حداً للافراد. وما «الحلم بالاثراء» الا مثال على ذلك. فالحركة الاجتماعية بين المراكز التي يحتاجها المجتمع ما هي الا حركة دائرية ضمن الطبقة الاجتماعية ذاتها. فاذا كان الاب عاملاً في مصنع من المصانع وحدث وان تدرج ابنه في العمل فاصبح مشرفاً على عدد من العمال، فان تلك الحركة الاجتماعية انما تدور ضمن نفس الطبقة التي شغلها الاب وليست انتقالاً من طبقة فقيرة الى طبقة غنية، او من طبقة عمالية الى طبقة رأسمالية. ولو كان الاب معلماً في المدرسة الابتدائية واصبح ابنه يشتغل بالتعليم الثانوي، فلا يعني ذلك ان الاسرة انتقلت من خلال هذه الحركة من طبقة الى اخرى. وتلك الحركة الاجتماعية ضمن الطبقة الواحدة تدحض الفكرة الرأسمالية القائلة بالمساواة التامة لجميع

⁵² عملية الظلم الاجتماعي: اتجاهات وتحليل - روبرت هاوسر وديفيد فيثمان. المطبعة الاكاديمية 1977م.

افراد المجتمع من مختلف الطبقات. فلو كانت المساواة حقيقية لما حصلت الحركة بين الطبقة الواحدة فحسب، بل لكانت بين الطبقات المختلفة، وبالخصوص بين الطبقة الدنيا والطبقة العليا. ولو كانت العدالة الرأسمالية حتمية التحقق لما انشأت النظرية الرأسمالية، النظام الطبقي واقربته وكرسته كاساس لتشيد صرح الحضارة الغربية الحديثة.

الفقر والفقراء في الرأسمالية

وتلوم النظرية الرأسمالية الفقراء في المجتمع على فقرهم، وتلزمهم مسؤولية الهبوط الى قعر السلم الاجتماعي، وتعزي سبب الفقر الى انعدام المسؤولية الاجتماعية للطبقة الفقيرة، وتزعم بان انعدام المساواة الاجتماعية بين الافراد لها تبرير عقلائي وهو ان الحدّ يفوز بقصب السبق من الناحية الاقتصادية، والخاسر يعاقب بالحرمان من الكسب المالي ويجرد من مركزه الاجتماعي وقيمه الاخلاقية؛ لانه ليس اهلاً للتمتع بالثروات الاجتماعية⁵³. واذا كانت الرأسمالية تضي على مجتمعها الغني شتى صفات الحسن والكمال، فانها تقصر عن اضاء صفة كريمة واحدة على الفقراء. فالفقير في المجتمع الرأسمالي يعيش في جحيم دنيوي صنعه له انسان آخر يتمتع بملذات الحياة ونعمها، ويوصمه بالجهل والامية وانعدام الحافز والدافع الذاتي الذي يدفع الانسان السليم نحو الانشاء والابداع. ولاشك ان عدم اكتراث الرأسمالية بالفقر والفقراء دليل على ان رواد تلك المدرسة الفكرية ليسوا اهلاً لزعامة الانسانية المعذبة باي حال من الاحوال. فكيف يقود متخمو العالم، ملايين المعذيين الذين يشدون على بطونهم الاحجار بلسماً لجوعهم وألمهم؟ وكيف يؤمن المستضعفون تسليم مفاتيح مجتمعاتهم لشريحة لا تملك فهماً للمعاناة الانسانية؟ ومع ان الرأسمالية تلقي منشأ الفقر على الفقراء⁵⁴، الا ان النظرية تفتقر الى تحليل واضح لابعاد الفقر وحاجة الفقراء؛ في حين انها تبذل جهداً مضنياً في تحليل ابعاد الاقتصاد الاجتماعي ودور رأس المال في تنشيطه وتنميته.

⁵³ الاصرار على انعدام العدالة الاجتماعية - جون دالين. شينكمان 1981م.

⁵⁴ المشاكل الانسانية للحضارة الصناعية - ايلتون مايو. فيكنك 1966م.

ونتيجة لاستقراء آراء الرأسمالية، فإننا نستطيع تصنيف الفقراء الى ثلاثة اصناف:

الاول: من يملك قوت سنته لسد حاجة عائلته الاساسية.

الثاني: من لا يملك قوت سنته.

الثالث: من لا يملك قوت يومه.

فالقسم الاول يمثل اناس يكدحون من أجل لقمة العيش، ولكنهم محرومون من الرفاه الاقتصادي الذي ينعم به الآخرون؛ علماً بان جهدهم لا يقلّ عن جهد افراد الطبقات الاخرى⁵⁵. اما القسم الثاني فيضمّ من لا يستطيع توفير الحد الادنى للعيش الكريم من المأكل والملبس والملجأ⁵⁶.

والقسم الثالث نزلاء الشوارع، وهم الذين لا ملجأ لهم، يمدون ايديهم للناس ويبحثون في القمامة عن فضلات الطعام ليسدوا بها رمقهم. ويقدر عددهم اليوم باكثر من اربعة ملايين جائع في الولايات المتحدة فقط⁵⁷، ناهيك عن بعض بلدان اوربا الغربية مهد الحضارة الرأسمالية الحديثة. وحتى ان «خط الفقر»، وهو الخط الاحمر الذي تحدده الرأسمالية للكلفة المعيشية الدنيا للفرد، كان - ولا يزال - خطأً يعبره الملايين ليستقروا داخل الطبقة الفقيرة.

ولكن الرأسمالية تفترض بان النظام الطبقي ليس له دخل في نشوء الفقر. وهذا الافتراض غير واقعي، لأن الفقر هو نتيجة مباشرة للمنافسة الاقتصادية بما فيها من ربح وخسارة، ونتيجة لفكرة البقاء للاقوى، وللمذهب الفردي. وتلك العوامل مجتمعة لها علاقة مباشرة بفكرة الطبقات.

ولرب سائل يسأل: هل بمقدور الرأسمالية حلّ مشكلة الفقر حلاً جذرياً حاسماً؟ واذا كان الجواب بالايجاب فلماذا لا تقوم بذلك؟ والجواب: ان الرأسمالية تستطيع من الناحية العملية حلّ مشكلة الفقر حلاً حاسماً، وذلك بحث المجتمع على ترك عادة مضرّة واحدة مثل تناول الخمر، وتوزيع

⁵⁵ حول عدم المساواة - ميلفين تيومين. بحث علمي في (المجلة النقدية لعلم الاجتماع)، عدد 28، 1963م. ص 19 - 26.

⁵⁶ اذلال الفقراء - جو فياجن. مصدر سابق.

⁵⁷ الظلم الاجتماعي: القواعد الاساسية للطاعة والعصيان - بارنينكتن مور. بانتيون 1979م. وايضاً: الطبقة المعذمة - كين اوليتا.

ماكرو- هيل 1982م.

المال المبدول على تلك العادة المضرة على الفقراء. ولكن هذا الحل لا ينسجم مع تطلعات الطبقة الرأسمالية. فتزعم بأنها لا تمتلك القيمومة على حرية الافراد، لان الفرد نظرياً ينبغي ان يتمتع بحرية كاملة على الصعيد الشخصي فيما يتعلق باللذة الجسدية، فلا يستطيع المجتمع ان يمنع فرداً من تناول شراب معين ينقله الى عالم خيالي⁵⁸. ولكن هذا المنطق يناقض نفسه في اكثر من موقع. فالموقع الاول، عندما حرم الكونغرس الامريكى الخمر في الثلاثينيات من هذا القرن، ثم عاد ورفع التحريم بعد أن أقرّ بان التحريم يتناقض مع الحرية الشخصية المزبورة في الدستور. والموقع الثاني، عندما حاولت الحكومة منع تعاطي المخدرات في الثمانينيات. فاذا كانت الرأسمالية لا تؤمن بالقيمومة على حرية الافراد الشخصية فلماذا تحرم تعاطي المخدرات؟ واذا كانت الرأسمالية تؤمن بتحديد الحرية الشخصية اذا كان الضرر محتملاً، فلماذا لا تحرم المسكرات؟

وتتمسك الرأسمالية ايضاً بفكرة منح الفرص المتساوية لافراد المجتمع، وتزعم ان ظاهرة انعدام العدالة بين الافراد ظاهرة تكاملية لانها تمنح الفرد المجدّ مكافأة تتناسب مع مقدار بذله للجهد المطلوب⁵⁹. ولكنها تخفي في واقع الامر، القيود التي تضعها على الفرد للانتقال الى المستوى الاجتماعي المناسب مع جهده وطاقته الفكرية والبدنية، وهي قيود الطبقة والنسب. فالطبقة الرأسمالية لا تفسح المجال لاي وارد يبحث عن فرص متساوية، مهما بلغ جهده الفكري والبدني مبلغاً؛ بل انها تدعي انه لما كان الفقراء يتحملون اللوم كاملاً على فشلهم في الحقل الاجتماعي فانهم لا يحتاجون الى يد تمتد لمساعدتهم، وانما يحتاجون الى من يحرك فيهم الدافع الذاتي للعمل والانتاج⁶⁰. وهذا المنطق سليم من وجهه، ولكن إذا كان الفقراء من الاطفال والنساء والشيوخ، فما دور الدافع لتحريكهم وهم قاصرون عن الانتاج!

وهنا تفشل الرأسمالية في تحديد العوامل الاجتماعية التي أوجدت الطبقة الفقيرة في المجتمع الانساني. فالفقر ليس ولادة فرد او خطأ أمة انما هو نتيجة موضوعية لفشل النظام الاقتصادي

⁵⁸ الخرافات حول التغيرات السايكولوجية - بيرناي زيلر جيلد. ليتل براون 1983م.

⁵⁹ الفرص والتغيير - مصدر سابق.

⁶⁰ الثروة والفقر - جورج كيلدر. الكتب الاساسية 1981م.

والاجتماعي في تحديد العوامل المتداخلة في تصميم التركيبة الاجتماعية وتنظيمها. ولاشك ان اكبر مظالم الفقراء، هو وجود النظام الطبقي المتعدد، واحتماء الطبقة الرأسمالية تحت مظلة القانون الذي يسمح لها بتجميع الثروة ويحرم الفقير من استلام قوت يومه حتى لو كان طفلاً قاصراً أو امرأةً ضعيفةً أو شيخاً هرمًا أو شاباً معاقاً. وليس لدينا ادنى شك بان العدالة بين الاغنياء والفقراء لا تتحقق الا بوجود نظام اجتماعي نزيه يحكم بين الناس بالعدل والقسط والمساواة.

الاسباب الداعية لاستمرار الظلم الاجتماعي

وقد يتساءل متسائل: اذا كانت الكثرة من افراد المجتمع مظلومة اجتماعياً ومحرومة من حقوقها الاساسية فلماذا لاتطيح تلك الكثرة بالطبقة المتحكمة القليلة العدد؟ ولماذا يستمر الظلم الاجتماعي لاجيال عديدة واحقاب زمنية طويلة دون ان يتزعزع النظام الاجتماعي الظالم؟ وللاجابة على تلك التساؤلات لابد من القول بان الظلم يتمسك - للحفاظ على نظامه السياسي - بعاملين في غاية الاهمية والخطورة:
الاول: السيطرة على منابع القوة والسلطة لحفظ النظام.
الثاني: ايجاد نظام فكري عقائدي يبرر للغالبية العظمى من افراد المجتمع أحقية ذلك النظام في البقاء.

1- السيطرة على منابع القوة :

وبطبيعة الحال، فان القاعدة الاقتصادية لأية جماعة من الافراد تؤثر تأثيراً بالغاً على التركيبة الاجتماعية والثقافية للمجتمع ككل. بمعنى ان الجماعة التي لها قوة اقتصادية عظيمة، تستطيع السيطرة على المؤسسات الاجتماعية الاساسية، كمؤسسات القضاء، والتعليم، والديانة، والطب، والحكومة. حيث ان تلك المؤسسات الاجتماعية تخدم مصالح تلك الطبقة القوية اقتصادياً، لان المال في النظام الرأسمالي هو المحرك الاساس لكل المؤسسات الاجتماعية⁶¹. فالقانون في ذلك المجتمع يدافع عن الثري

⁶¹ تشخيص الطبقة الاجتماعية - روبرت هودج ودونالد ترايمان. (المجلة الامريكية لعلم الاجتماع)، عدد 73، 1968م. ص 535-547.

ولا يحمي الفقير. والمؤسسات الدينية في المجتمع الرأسمالي تدعم النظام الظالم ولا تنادي بتعديله. وحتى المؤسسات التعليمية تمجد حسنات الرأسمالية ولا تنتقد اخطائها وسلباتها⁶². وبالتالي فان الطبقة الحاكمة تصبح هي الوطن والعرض والدين، ومن يهاجمها فانما يهاجم الوطن والعرض والدين. وتمتلك الطبقة الرأسمالية شبكة علاقات اجتماعية منظمة تشبه - الى حد كبير - الشبكة التنظيمية للحزب السياسية، حيث تعمل من خلالها للسيطرة على منابع الثروة والقوة السياسية⁶³؛ لان هذه الشبكة توفر لعضائها احسن فرص التعليم الجامعي، وفضل الاعمال التي تدر اجوراً ومكافآت اجتماعية عالية، وفضل المواقع السياسية في النظام الاجتماعي. وبهذا الاسلوب الدقيق، يحتل الرأسماليون اعلى مواقع العمل السياسي في الدولة؛ وهو بلاشك يؤدي الى المحافظة على ثبات موقع طبقتهم في السلم الاجتماعي وما يتبعه من نعيم عظيم لافرادها وحرمان اعظم لافراد الطبقات الاخرى.

وإذا كان التعديل الاجتماعي لادارة الثروة قضية استثنائية، فان الرأسمالية تحاول اقناع الفقراء بالخصوص، بقبول حالة انعدام العدالة على اساس انها مسألة اجتماعية طبيعية وانها قضية مشروعة⁶⁴. فالانظمة الملكية تشجع الفقراء على الهتاف بالحياة للملك، مع ان الفقير العاقل يتساءل: من منح الملك ملكية الارض وخيراتها؟ واصحاب المال يشجعون الفقراء بالهتاف «للحلم بالاثراء»، ولكن الفقير العاقل يتساءل: ايهما افضل، ان اعيش جائعاً مع حلم قد يتحقق، أم بواقع متواضع دون احلام؟

2- النظام الفكري لطبقة الاقوياء:

وليس هناك ادن شك من ان النظام الفكري والثقافي لأيّ مجتمع هو النظام الفكري الذي تتبناه الطبقة الحاكمة. فطبقة العمال في المجتمع الشيوعي مثلاً، تفرض الفكر الذي تتبناه وتؤمن به.

⁶² انعدام العدالة - كريستوفر جينكسز. مصدر سابق.

⁶³ السلطة والامتيازات: نظرية في انعدام العدالة الاجتماعية- جيرهارد لينسكي. ماكرو-هيل 1966م.

⁶⁴ السلطة والتبادل في الحياة الاجتماعية - بيتر بلاو. وايلي 1964م.

وعندها، يصبح الفكر الشيوعي هو الفكر المسيطر على الساحة الفكرية في المجتمع. والفكر الذي تؤمن به الرأسمالية يسيطر على كل توجهات المجتمع الرأسمالي. وهكذا ترى ان الافكار تابعة للحكام، كما ان الاحكام تابعة للاسماء في المصطلح الاصولي. ولتوضيح مقصودنا، نسردها المثال التالي: ان اخطر كلمة يرهبها الظالم وانصاره هي كلمة (العدالة)، ولذلك فانك لا ترى صدى هذه الكلمة في الساحة الاعلامية او الفكرية. بل يحاول النظام استبدال كلمتي (العدالة الاجتماعية) بـ (الحلم بالاثراء) باعتبار ان الفقراء مدانون على فقرهم وفشلهم في جني الاموال، ولو حظي الفقراء بشيء من الذكاء والمهارة لما استغرقت رحلتهم من صحراء الاحلام الى شاطئ الواقع وقتاً طويلاً⁶⁵.

والاساس الفكري الرأسمالي - بزعمهم - ينسجم مع طبيعة الانسان في الجد والعمل. وما الفقير الا فرد متقاعد عن العمل، مستسلم لقبول الواقع الاجتماعي والاقتصادي. وهذا الاسقاط النفسي بلوم الفقراء على فقرهم، وتشجيعهم على الايمان بالمصير المكتوب، وحنمية القدر يخدم الرأسمالية؛ لانه يحاول تخدير الفقراء الى امد غير محدود. ولذلك، فان اية حركة فكرية تحاول ايقاظ الغافلين من غفلتهم ونومهم تواجهه باقسي الوسائل واعنفها.

والاسلام بكل ابعاده العبادية والاجتماعية يمثل تلك الحركة الموضوعية التي تحاول ايقاظ هؤلاء النائمين من نومهم العميق، ولذلك فان محاربته تستدعي استخدام اقصى وسائل البطش والتنديد. والدليل على ما ذهبنا اليه، اننا لو اخذنا ديناً آخر كالهندوسية، ودرسنا موقف النظام الرأسمالي منه للاحظنا ان النظام يشجع فكرة الهندوسية، ولا يعرض معتنقيها للاضطهاد. والسبب في ذلك ان الهندوسية تؤمن بتناسخ الارواح. فروح الميت تحل بالتناسخ بافراد عدّة في اوقات مختلفة، فاذا كان الفرد مطيعاً للتعاليم الهندوسية حلت روحه في جسم أحد افراد الطبقة العليا في المجتمع، واذا كان الفرد عاصياً للتعاليم دينه، حلت روحه في جسم أحد افراد الطبقة الفقيرة⁶⁶.

وهذا الدين يقدم للفقراء في المجتمع الرأسمالي سبباً للاعتقاد بان وجودهم ضمن الطبقة الفقيرة

⁶⁵ الخلفية الاقتصادية - الاجتماعية والمكتسبات - اوتيس ديدلي دنكان. المطبعة الاكاديمية 1972م.

⁶⁶ الهندوسية - لويس رينو. نيويورك: جورج برازيلر 1962م.

انما هو عقاب للارواح العاصية، ولذلك فانهم لا يستطيعون الانتقال بالمرّة من الطبقة الفقيرة المحكومة الى الطبقة الثرية الحاكمة؛ ويقدم للاغنياء سبباً آخر للاعتقاد بان وجودهم ضمن الطبقة الرأسمالية أمر ينسجم مع طبيعة الخلق والتكوين، باعتبار ان الغنى والتوفيق متناغم ومتوافق مع الطاعة والانقياد للدين⁶⁷. ولاشك ان ديناً كهذا، يسدي للنظام الرأسمالي اعظم خدمة، لانه يقوم بتخدير الفقراء وابقائهم ضمن حدود الحرمان في طبقتهم الاجتماعية الدنيا؛ وفي نفس الوقت يقدم خدمة للطبقة الرأسمالية المتنعمة بالخيرات الطبيعية والبشرية للاستمرار في ظلمها وسحقها الطبقات المحرومة في النظام الاجتماعي.

والنظام الكنسي النصراني في القرون الوسطى قدّم - هو الآخر - خدمة جليلة للنظام الاقطاعي السائد في اوروبا. فطالما كان الملك مفوضاً من قبل الله سبحانه وتعالى بالتصرف بارواح الناس واموالهم واعراضهم، كانت الجرائم المنسوبة للطبقة الحاكمة نتيجة طبيعية للارادة الالهية والعمل الرباني، وليس للافراد دخل في تغييرها او ادانتها⁶⁸! اذن ليس غريباً ان نجد افراداً عاشوا آثار تلك الافكار مثل (كارل ماركس) وغيره، وبعد ان رأوا بأعينهم فظائع سلوك رجال الكنيسة، آمنوا بان الدين افيون الشعوب. وليس هناك شك بانهم كانوا يقصدون المؤسسة النصرانية في ذلك؛ لانهم رأوا آثار احكام بابوية القرون الوسطى القائلة بان النظام الاجتماعي الظالم لايجوز تغييره او ادانته، لانه نظام الهي. فأجبر الفقراء على قبول ذلك النظام الطبقي باسم الدين والكنيسة. ولاتزال الكنيسة الى هذا اليوم، تساند النظام الرأسمالي الطبقي؛ حيث تعتبر (خصوصاً عقيدة البيورتنز أو الانقياء) الغنى توفيقاً إلهياً للعبد المطيع، والفقير سخطاً ربانياً على العبد العاصي⁶⁹.

في حين تشير الدلائل الموضوعية الى رفض ذلك المنطق، لان الغنى والفقير مسألة نسبية، يتعلق جزء منها بالانسان والجهد الانساني والجزء الآخر بالله سبحانه وتعالى عن طريق التوفيق والرزق. وحتى ان فكرة الاستعمار الاوروي للمناطق الآمنة في افريقيا وآسيا لنهب ثروات العالم الاسلامي في

⁶⁷ التاريخ الاجتماعي للطبقة في الهند - كارن اسكاسين ليونارد. جامعة كاليفورنيا 1978م.

⁶⁸ الدين في المجتمع المعاصر - بول جالفانت وآخرون. مي فيلد 1986م.

⁶⁹ البيورتنز والبراغماتستس - بول كونكين. جامعة انديانا 1976م.

القرن الرابع الاخير، صورت من قبل الرأسمالية على انها من انبل قضايا الرجل الابيض⁷⁰. وكان هدفها بالاصل - بزعمهم - رفع غائلة البدائية والمرض والفقير عن رجال المجتمعات المتخلفة، ورفع علم الحضارة والتقدم في ثانيا تلك المجتمعات. وربما اعتقد فقراء المجتمع الرأسمالي في الماضي ان ادعاءات الرجل الاوروبي الابيض فيما يتعلق بفقراء العالم صحيحة، ولكن تبين لهم فيما بعد ان الذي استعدهم لقرون طويلة لا يمكن ان يعدل مع افراد آخرين يختلفون عنه في الجنس واللغة والدين. قطع الرأسمالي يطغي على كل القيم الانسانية، وعلى كل الاخلاق والاعراف الشريفة.

واخيراً، فان فحول المدرسة الرأسمالية الحديثة يؤمنون بان انعدام المساواة عامل مهم في حفظ حيوية المجتمع، باعتبار ان الحياة ربح وخسارة. فالرباح يحصل على جائزته، والخاسر لا يحصل على شيء، بل عليه ان يتنازل بشيء من جهوده للرباح⁷¹. ومع ذلك فان للافراد جميعاً - بادعاء النظرية - فرصاً متساوية لتحسين وضعهم الاجتماعي! فكل فرد يملك فرصة مناسبة ليصبح غنياً ويتنقل صعوداً الى الطبقة الرأسمالية. ولكن الحقيقة المرة التي لا تعترف بها النظرية هي ان الكثير من الافراد في المجتمع الرأسمالي يبذلون جهدهم ويصبون عرقهم، ولكنهم لا يصلون الى مستوى الطبقة الرأسمالية؛ بل تبقى الاكثية ضمن طبقتها الاجتماعية التي حدها لها النظام سابقاً. اما الذين يطمحون ولكنهم لا يصلون الى شاطئ الحلم المالي، فان النظام يعلمهم، بلوم انفسهم والعتب على حظهم العاثر⁷².

والحقيقة الناصعة، هي ان عليهم لوم الفكرة الفاشلة في استيعاب طموحات جميع الافراد ضمن طبقة واحدة تجمعها العدالة والمساواة الاجتماعية، أو على الاقل ضمن طبقات يتقلص فيها البون الشاسع في الاجور والمكافآت. ولاشك ان ذلك الفكر الذي يريد به البعض السيطرة على عقول الناس في المجتمع يخدع الكثير من الافراد خارج النطاق الرأسمالي، بعباراته البراقة وثوبه الجميل، المليء بالالوان وموارد الأثارة.

⁷⁰ قلب الظلام - جوزيف كونراد. نيويورك: سانت مارتن 1989م.

⁷¹ اقتصاد العالم الرأسمالي - عمانوئيل لورستانين. جامعة كامبردج 1979م. وايضاً: الاقتصاد والمجتمع - ماكس وبر. 1922م.

⁷² الخلفية الاقتصادية - الاجتماعية والمكتسبات - مصدر سابق.